مقاميّة الخطاب الديني المعاصر في الإعلام المرئي قراءة تداولية

سعد عبدالله مقداد*

ملخص

يتعيّن على منشئ الخطاب أيًّا كان نوعه استحضار بيئة كلامية ومقامية تتلاءم وطبيعة ذلك الخطاب، بل يستلزم تحديدَ مقام أو سياق يعاضد أدوات الخطاب الأخرى تحقيقًا للأثرٍ في المتلقي. وعليه ينظر هذا البحث في مقامية الخطاب الديني في الإعلام المرئي المعاصر انطلاقًا من المادة الخطابية المبثوثة في الفضائيات المرئية وصفًا وتحليلاً لكيفية انتخاب منشئ الخطاب مقامًا أو سياقًا يسهم في تشكيل خطابه، ويستهدف هذا البحث استظهار مقامات الألسنة العربية الحاضرة في الخطاب الديني المعاصر في الإعلام المرئي؛ راصدًا مشهد التمثيل اللغوي بتنوع أداءاته اللسانية، وصولاً إلى استكناه المسوغات والأسباب المؤدية إلى إنتاج ذلك الخطاب بتلكم الصورة، وانتهاء بالوقوف على مواطن القوة أو الضعف في ذلك المشهد.

وتحقيقًا لتلكم الغاية يتوسّل الباحث بالمنهج الوصفيّ التحليلي متّكئًا على فحص مادّة ذلك الخطاب ومتخذًا من رصد المشهد الخطابي الإعلامي مرتكزًا يلج من خلاله إلى أسلوبية الحضور المقامي المنوّع اجتماعيًّا ونفسيًّا وغيرهما؛ مما يَبِين أثر السياق في تمايز أنماط الخطاب. لينتهي الأمر بتحصّل بعض الاستنتاجات منها؛ تنوع أنماط المقام اللساني للخطاب الديني تبعًا لطبيعة المضمون المقدَّم وثقافة المتلقين، فضلاً عن الإمكانات اللغوية والبيانية التي يمتلكها منشئ الخطاب. ومجيء المشهد الخطابي الديني متفاوتًا من حيث طبيعة الأداء اللغوي؛ فظهرت الفصيحة النقية تارة، وتمظهرت اللغة الهجينة تارة أخرى، واستولت اللغة العامية بتنوع لهجاتها تارة أخرى.

الكلمات الدالة: السياق، الخطاب، الإعلام المرئي، تداولية.

استهلال

ينهض الدرس التداولي اللساني الحديث باستشراف إمكانات اللغة الخطابية في تحقيق تواصلٍ اجتماعي بين أطراف هذه العملية، بوصفها لغة حوارية يفترض أن تمتلك آليات بنائية قادرة على تشكيل منجز فكري أو حضاري مقنع.

هذه الغاية السامية تستدعي ضرورة مشاركة فاعلة بين أطراف هذا الخطاب بلوغًا للمأرب الذي من أجله جاء هذا الخطاب؛ فالكاتب أو المفكّر الحصيف يسلك سلوكًا لغويًّا يتحرّى فيه الدقّة التعبيرية والسلامة اللغوية التي تشعر المتلقي باحترام الكاتب لعقله والسماح له بالمشاركة في صناعة هذا العمل باعتباره المستهدف من هذا الخطاب؛ فيلتقي الكاتب والمتلقي في ميدان خطابيٍّ تتفق أو تفترق فيه الأفكار والمضامين، وبالمحصّلة فإنّ منشئ الخطاب يستهدف القوّة والعمق والجمال مسخِّرًا طاقاته التعبيرية التأثيرية المائزة لهذا الخطاب.

فما الخطاب؟ وكيف تتمظهر هيئاته في بلوغ المراد؟ وهل للخطاب صورة نمطية معيارية مقيِّدة أم أنّ الأمر ينفتح على تنوع متاح للجميع؟ وكيف يستلهم منشئ الخطاب آليات بناء خطابه؟ وهل للمقام أثر في التهيئة المثالية لولوج مفاصل الخطاب واستحضار مقاصده؟ لعلّ استدعاء الإجابة عن هذه التساؤلات غايةٌ يرومها الباحث بلوغًا لتشكيل تصوّر علميّ لما يشهده الخطاب من تمثلات أدائية مختلفة قد يكون للمقام أو السياق– ضرورةً– أثر بالغ في صناعته وتشكيله.

أهمية البحث:

تتجلى أهمية هذا البحث في استظهار مقامات الألسنة العربية الحاضرة في الخطاب الديني المعاصر في الإعلام المرئي؛ راصدة مشهد التمثيل اللغوي بتنوع أداءاته اللسانية، وصولاً إلى استكناه المسوغات والأسباب المؤدية إلى إنتاج ذلك الخطاب بتلكم الصورة، وانتهاء بالوقوف على مواطن القوة أو الضعف في ذلك المشهد.

---

* قسم العلوم الأساسية الإنسانية، كلية الآداب والعلوم، جامعة العلوم التطبيقية الخاصة، الأردن. تاريخ استلام البحث 2018/1/7، وتاريخ قبوله 2018/12/31.

 © 2019 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

مشكلة البحث:

تجتهد الدراسة في الإجابة عن تساؤل محوري: لماذا تتباين مقامات الأداء اللغوي للخطاب الديني المعاصر في الإعلام المرئي؟ وينبثق عن هذا التساؤل أسئلة أخرى؛ منها: هل اختلاف المقام اللساني متاحٌ بلا قيود؟ وهل يبلغ هذا التنوع مراميه؟ وما الأثر الناجم من تنوّع هذه المقامات على سلامة العربية والحفاظ على قداستها؟ وما المقاصد التي يتغاياها منشئو ذلك الخطاب باتخاذهم أسلوبًا مائزًا لهم؟

الدراسات السابقة:

سؤال الخطاب ومقتضياته استحوذ على كثير من الأدبيات العربية؛ وتنوعت موضوعات طرحه من منطلقات لسانية واجتماعية ونفسية وغير ذلك، غير أنّ دراسة ذات فرادة في مقامية الخطاب الديني المعاصر في الإعلام المرئي لم تتخذ من لدن الباحثين جانبًا من الدرس والتأمل، إلا أنّ بعض الدراسات لامست شيئًا من الموضوع كدراسة: محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر دراسة تحليلية نقدية، والنص والخطاب(دراسة نظرية) لـ محمد سعيد الغامدي، وكتاب بعنوان: الإعلام واللغة لـ: محمد كاظم البكّاء، وكتاب (صور من الخطاب الديني المعاصر) لـ أحمد أبو زيد، يسلط فيه الضوء على ثلاثة مستويات من الخطاب الديني الأول: هو الخطاب الذي تنتجه المؤسسات الدينية مثل: الأزهر أو الكنيسة القبطية أو الذي تنتجه نخبة دينية لها تأثير واسع في القراء أو المستمعين. والثاني: هو الخطاب الديني الذي ينتج في المساجد أو الكنائس وهو خطاب متنوع يخضع للاجتهاد الشخصي في الكثير من الأحيان، رغم انه ينبع من المؤسسة الدينية رسميًّا، والثالث: الخطاب الديني كما يتجسد في حياة الناس اليومية وكما يعبر عنه الحديث اليومي للأفراد أو عبر تفاعلاتهم الاجتماعية. فضلاً عن مقالة بعنوان: واقع الخطاب الديني الإعلامي المعاصر: رؤية نقدية، لعبدالله بوجلال، نُشرت في الجزائر؛ قدّم فيها الباحث توصيفًا لواقع الخطاب الديني في الإعلام المعاصر، مبيّنًا أهمّ التحديات التي يعانيها الخطاب الديني والأسباب التي تجعله مقزّمًا قليل الجدوى والنفع، ملتقتًا بعض الدواعي والمبررات التي أدّت إلى نفور كثير من المتلقين من هذا الخطاب، وغيرها من المقالات التي تناولت أطرافًا من موضوع البحث.

منهجية البحث:

يتجه البحث نحو الإجابة عن تساؤلات مطروحة تستلزم اتباع منهج علمي مُحكم؛ وتحقيقًا لتلكم الغاية سيتوسّل الباحث بالمنهج الوصفي التحليلي، ضمن معطيات لسانية تداولية اجتماعية. فضلاً عن إمكانية استحضار منهج أسلوبيٍّ ينطلق من ميدان موضوع البحث يبلغ الغاية ويحقق المراد؛ بالنظر والفحص والدرس في مادّة الخطاب الديني في الإعلام المرئي المعاصر المتمثل بمضامين بعض القنوات الفضائية العربية.

محدِّدات تأصيلية

بالوقوف على الحدّ المعجميّ للخطاب نجد أنّ الخطاب هو" **مراجعة الكلام**، وقد خاطَبَه بالكلامِ مُخاطَبَةً وخِطابًا... والمُخاطَبَة مُفاعَلَة من الخِطاب،والخُطْبَة عند العربِ: الكَلامُ المَنْثُورُ المُسَجَّع، ونحوُه. التَّهْذِيبُ: والخُطْبَة، مثلُ الرِّسالَة، التي لَها أَوَّل وآخِر.(ابن منظور، د.ت: مادة (خطب)). وذهب الزمخشري إلى القول:" خطَبَ، خاطَبَه أحسَن الخطاب، **وهو المواجهة بالكلام**، وخطب الخطيب خُطبةً حسنةً.." (الزمخشري، 1998: مادة خطب))، وعند التهانوي فإنّ الخطاب يقوم بوظيفة تواصل تجمع بين متكلِّم وسامع، ولا يمكن تحقيقها بالاعتماد على الوسائل غير اللغوية؛ كالحركة والإيحاء والإشارة.(التهانوي، 1972:175)، أمّا في اصطلاح المحدثين فيرى (فوكو) أنّ الخطاب: "...هو أحيانًا يعني الميدان العام لمجموع المنطوقات، وأحيانًا أخرى مجموعة متميزة من المنطوقات، وأحيانًا ثالثة ممارسة لها قواعدها، تدل دلالة وصف على عدد معيّن من المنطوقات وتشير إليها"(بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، : 94- 95) وعليه فإنّ الخطاب عند (فوكو) "شبكة معقّدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب ينطوي على الهيمنة والمخاطرة في الوقت نفسه".(الرويلي والبازعي، 2000: 89)

ويعرّف (تودروف) **الخطاب** بأنه "أيّ منطوق أو فعل كلامي يفترض وجود راوٍ ومستمع، وفي نية الراوي التأثير على المستمع بطريقة ما".(تودوروف، 1993: 93)

ويحدّد (بنفست) الخطاب بمعناه الأكثر اتساعًا بأنه" كلّ تلفّظ يفترض متكلّمًا ومستمعًا وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما".(الشهري،2004: 37)

وعليه فإنّ الخطاب بهذا المفهوم السابق يتجاوز حدود الجملة طولاً، وتتحقق فيه عملية التواصل بين أطراف العملية التواصلية المكوّنة من عناصرها: المرسِل والمتلقي، ونصّ الرسالة. وعليه، " فإنّ أيّ خطاب لا يمكن إدراكه بوصفه حدثًا تواصليًّا دون إدراك الظروف الزمكانية وأحوال المخاطبين والعملية الثنائية القائمة على التأثر والتأثير، وهذا النوع من المخاطبات لا يمكن عدّها نصوصًا

مجرّدة عن السياق المقاميّ؛ لأن وظيفتها التأثير في الآخر/ المستمع، والتغير على أرض الواقع".(شويحط، وخليل(2016)، 4: 1807)

وتتعدد مشاهد الخطاب البشريّ بتنوّع الطرائق والأساليب وتبعًا للظروف المكوّنة والمحيطة بهذا الخطاب؛ فهناك خطاب تعليميّ وآخر تربويّ، وثالث وعظيّ إرشاديّ، ورابع إعلانيّ ترويجيّ، وآخر تثقيفي تعريفيّ، وغيرها من ألوان الخطاب التي تتخذ وسائل مختلفة لإنشاء هذا الخطاب، وحديثًا يمكننا القول بأنّ الخطاب الإعلامي بتمثّلاته المتنوعة يعدّ من أكثر مصادر التشكيل الثقافي والأيدلوجي للأفراد والجماعات، بل هو ميدان واسع يتيح ملامح التأثير والصناعة الفكرية والعقلية للإنسان، وهوبذلك يستدعي ركامًا من هذه الأيدلوجيات التي ينادي بها أصحابها بأساليب تعبيرية ذات طاقات تأثيرية موجّهة بلوغًا إلى تشكيل رؤية مقنعة منطقية جاذبة للمتلقي؛ تبعًا لإمكانات صانع الخطاب وامتلاكه أدوات الإقناع والتأثير. وعليه فإن الخطاب الإعلامي "منتوج لغوي إخباري منوّع في إطار بنية اجتماعية ثقافية محدّدة" (إبرير، بشير، 2008، المجلد1: 231 وما بعدها)

وبغية تحقيق الخطاب مقاصدَه ومراميه تتعانق ستة أركان متآزرة بصورة تتوزّع فيها المهام بين **مرسِل** يوجّه رسالة إلى **المرسَل إليه**، ولكي تكون الرسالة فاعلة فإنها تقتضي سياقًا تحيل إليه، سياقًا قابلاً لأن يدركه المرسَل إليه؛ وهو إمّا أن يكون لفظيًّا أو قابلاً لأن يكون كذلك، وتقتضي الرسالة بعد ذلك، **سَنَنًا** مشتركًا، كليًّا أو جزئيًّا بين المرسِل والمرسَل إليه، وتقتضي الرسالة أخيرًا **اتصالاً**؛ أي قناة فيزيقية وربطًا نفسيًّا بين المرسِل والمرسَل إليه؛ اتصالاً يسمح لهما بالإقامة التواصل والحفاظ عليه.(ياكبسون، 1988: 27)، ولعلّ كلّ عامل من هذه العوامل يولّد وظيفة لسانية مختلفة؛ فالوظيفة المسمّاة " تعبيرية" أو انفعالية المركّزة على المرسِل تهدف إلى أن تعبّر بصفة مباشرة عن موقف المتكلّم تجاه ما يتحدّث عنه، وهي تنزع إلى تقديم انطباع صادق أو خادع، وتمثّل صيغ التعجّب في اللغة الطبقة الانفعالية الخالصة. ويجد التوجّه نحو المرسَل إليه، أي الوظيفة الإفهامية، تعبيره النحويّ الأكثر خلوصًا في النداء والأمر، الذيْن ينحرفان، من جهة نظر تركيبية وصرفية عن المقولات الاسمية والفعلية الأخرى، وتختلف جمل الأمر عن الجمل الخبرية في نقطة أساسية: فالجمل الخبرية يمكنها أن تخضع لاختبار الصدق ولا يمكن لجمل الأمر أن تخضع لذلك. (ياكبسون، 1988: 27، 28)

وإذا اقتصرنا الحديث هنا على الخطاب الديني– تحديدًا– نجد أنه مصطلح جديد ذاع في العصر الحديث، وأول من أطلقه الغرب على الخطاب الإسلامي تحديدًا، ولم يُعرف هذا الاصطلاح من قبل في ثقافة المسلمين، بمعنى أنه ليس مصطلحًا له وضْعٌ شرعيّ في الإسلام كالمصطلحات الشرعية الأخرى مثل الجهاد والخلافة والديار والخراج...

وعند الحديث عن ماهيّة هذا الخطاب فلابدّ أن نستثني الخطاب القرآني الذي يترفع عن كلام الإنس والجنّ؛ فلغة القرآن توقيفية لا وضعية كما هو حال لغة البشر التي يستخدمها العامّة والخاصّة، وعليه فإنّ المراد بالخطاب الديني هنا الخطاب الرسمي وغير الرسمي في الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب، خاصّة المرئية منها في ظلّ انتشار الفضائيات العربية المتضمنة لموادّ خطابية تصنّف على أنها دينية كبرامج الفتاوى والوعظ والإرشاد والسياسة الإسلامية والثقافة والاقتصاد وغيرها. ولعلّ ما يميّز هذا الخطاب من غيره من صور الخطاب الأخرى أنه خطاب كونيٌّ إنسانيٌّ لا يقتصر على فئة أو طائفة ما في زمن معين بل يتوجّه لعموم البشر على اختلاف أعراقهم وأجناسهم إلى قيام الساعة، وهو خطاب يسعى لنهضة الإنسان ورفع شأنه وتفضيله على سائر المخلوقات.

وبما أنّ اللغة هي مادّة أيّ خطاب فإنها تتجاوب بتنوع مستويات أدائها لتبلغ وُكدها، وتدنو من تحقيق غاياتها على اختلاف تمثيلاتها الأدائية؛ فتتراءى صنوف التعبير اللغوي بما تستظهره من صورٍ ومقامات يتربّع على عرشها أفرادٌ يستهدفون من تأدية هذه المستويات تحقيق قبولٍ واستحسان لدى الآخرين، منطلقين من مبدأ أنّ اللغة ملك للجميع دون أيّ قيود استعمالية أو أدائية تسلب قائدها الحرية في الأداء والتعبير. وهم بما يشرعونه من أمر هذه اللغة نجدهم يفرضون أنفسهم فرضًا يكاد يكون مقبولاً رائقًا لا سبيل إلى إنكاره؛ وذلك ربما بحكم مكنة صاحبه من آلة كلامه–على اختلاف مقاماته– كأنْ يسعى جاهدًا إلى فرض لهجةٍ عاميّة في أحايين كثيرة بوعي أو دون وعيٍ، ليجد نفسه قد ولج في دواخل المشاهدين أو المستمعين، بما اتصف به من سهولة في الأسلوب ورقّة في اللفظ، وطرائق تعبير حتّى وإن ابتعدت عن مستوى الفصيح من الكلام.

وبما أنّ الخطاب نمط لساني تواصلي تداولي كان لابدّ من حضور اجتماعي متناغم ينساق مع الحاجة التي من أجلها وُضِع ذلك الخطاب. فاللسانيات الاجتماعية تتوجه إلى "دراسة الوظيفة الاجتماعية للغة؛ فتدرس التبدلات الاجتماعية للغة في علاقتها بالمتكلمين الناطقين، من حيث السن، والجنس، والفئة الاجتماعية، والوسط، والمستوى المهني، والمستوى التعليمي؛ وتحليل العلاقة القائمة بين اللغة والممارسات الاجتماعية (العائلية، والدراسية، والوظيفية...)؛ ثم تفسير الوظيفة الاجتماعية للغة؛ والاهتمام بقضايا لغوية واجتماعية كبرى تتعلق باللغة الأم، وموت اللغات، وعلاقة اللغة باللهجة والفصيلة، والثنائية والتعددية اللغوية، والأنظمة اللغوية

المركبة والمعقدة، وتدبير التعدد اللغوي، والسياسات اللغوية، والتخطيط اللغوي" (بوفرة، 2015 :11)، بل تجتهد "اللسانيات الاجتماعية في ربط الهُوية الاجتماعية للمتكلم بالهُوية الاجتماعية للمتلقي، ضمن سياق لغوي تواصلي معين يرتكز على: المخاطِب، والمتلقي، والسياق".(بوفرة، 2015 :18). ويذهب (باختين) إلى القول: "لا نقصد بلغة اجتماعية مجموع العلامات اللسانية التي تحدد إعطاء القيمة اللهجوية للغة وتفريدها، وإنما نقصد الكيان الملموس والحي لعلامات تفريد اللغة تفريدًا اجتماعيًّا يمكن أن يتحقق أيضًا في إطار لغة وحيدة لسانيًّا، محدِّدًا نفسه بتحويلات دلالية وبانتقاءات معجمية"، ذلك أن اللغة الاجتماعية محملة بالقصدية والوعي. (باختين، 2009: 38).

ويعدّ (ديل هيمس) ما أسماه "الملكة التواصلية أساسًا للتصور القائم على ربط اللغة بمحيطها الاجتماعي، وذلك وفق نموذج أطلق عليه تسمية (S.P.E.A.K.I.N.G) ويمكّن هذا النموذج من استيعاب أشكال التغيير الثقافية الحاصلة في الأنساق التواصلية عامة. فنحن أمام نموذج يتيح لنا إمكانية مقارنة دور الخطاب داخل مجتمعات بشرية مختلفة."

ويتكون هذا النموذج من العناصر الأساسية الآتية:

1- الإطار (المكان، والزمان، وأجواء الخطاب)
2- المشاركون (الشخصيات الحاضرة والمتفاعلة)
3- الأهداف (هدف اللقاء)
4- الأفعال أو المنتوج (الرسائل)
5- الإيقاعات (الصوت، والنغمة، وإيقاع الرسائل...)
6- الوسائل التواصلية (اللغة المنطوقة، واللغة المكتوبة، واللغة المنشودة والمغناة،..)
7- المعايير (المثاقفة والتناصّ والحوارية...)
8- الأجناس أو أنواع الخطاب (الحكايات، والتاريخ، والملاحم، والمآسي)

واعتمادًا على هذه المرتكزات التي تربط البنية اللغوية بسياقها الاجتماعي والتواصلي، يصعب الفصل بين اللسانيات أو سياقها".(بوفرة، 2015:18)

المقام خادم لتفسير الخطاب

أيًّا كان نوع الخطاب حاضرًا فلابدّ أن يستدعي ضرورةً بيئةً كلامية مناسبة له يمكن تسميتها **بالمقام**؛ الذي هو جملة الظروف والأحوال والسياقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والدينية المحيطة بإنتاج ذلك الخطاب. يقول تمام حسان :" فالذي أقصده بالمقام ليس إطارًا ولا قالبًا وإنما هو جملة الموقف المتحرك الاجتماعي الذي يعتبر المتكلم جزءًا منه كما يعتبر السامع والكلام نفسه وغير ذلك مما له اتصال بالمتكلم، وذلك أمر يتخطى مجرد التفكير في موقف نموذجي ليشمل كل جوانب عملية الاتصال من الإنسان والمجتمع والتاريخ...والغايات والمقاصد".(حسّان، 2000: 304).

وهذا يدل دلالة واضحة على أن مقامات الكلام متفاوتة؛ فمقام التشكر يباين مقام الشكاية ومقام التهنئة يباين مقام الترهيب ومقام الجدّ في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يباين مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر(السكاكي، 1987: 168-169). ويذهب الدّسوقي في حاشيته على السعد إلى أنّ:" مقامات الكلام: الأمور المقتضية لاعتبار خصوصية ما في الكلام"، وإذا اختلفت المقامات لزم اختلاف مقتضيات الأحوال لأن اختلاف الأسباب في الاقتضاء يوجب اختلاف المسببات.(الدسوقي، 2007: 125/1)(إذ الاعتبار اللائق بهذا المقام غير الاعتبار اللائق بذلك واختلافها عين اختلاف مقتضيات الأحوال.(التفتازاني، 2013: 25)

والحال أمر يقتضي أن يؤتى بالكلام على صفة مخصوصة تناسبه؛ كالإنكار مثلا إذا اقتضى أن يورد الكلام مع صاحب ذلك الإنكار مؤكَّدًا(الجرجاني، 1991: 48-49).(فمثلا كون المخاطب منكرًا للحكم حال يقتضي تأكيد الحكم، والتأكيد مقتضى الحال، قولك:" إنّ زيدًا في الدار مؤكدًا بـ"إنّ" كلام مطابق لمقتضى الحال"(التفتازاني،1411هـ: 1/ 122-123)

وعلى هذه المقامات تتوزع الظواهر الأسلوبية من تقديم وتأخير وتعريف وتنكير وحذف وذكر وقصر وفصل ووصل وإيجاز وإطناب لتحصل المطابقة المطلوبة التي جعلت أساسا لتعريف البلاغة.

وعرّف الزنكي **السياق** بأنه ما انتظم القرائن الدالة على المقصود من الخطاب، سواء أكانت القرائن مقالية أم حالية. وبتعبير آخر: هو العبارات المكونة والسابقة واللاحقة والغرض الذي جاء من أجله الكلام(الزنكي، 2006: 63).

ويظهر مما سبق أن السياق نوعان:

- **السّياق اللّغوي(أو المقالي):** العبارات المكونة والسابقة واللاحقة ذات الترابط النحوي أو المنطقي.

- **السياق المقامي:** ما ينتظم القرائن المقامية التي تفسر الغرض الذي جاء النص لإفادته، سواء أكانت قرائن في الخطاب ذاته أم في المتكلم أم في المخاطب أم في الجميع. (الزنكي، 2006: 63).

وذهب الغذامي إلى أنّ السياق" هو المرجع الذي يُحال إليه المتلقي كي يتمكّن من إدراك القول، ويكون لفظيًّا أو قابلاً للشرح اللفظي".(الغذامي، 2006: ص11)

إنّ فكرة السياق أو المقام هي المركز الذي يدور حوله علم الدلالة الوصفي في الوقت الحاضر وهو الأساس الذي ينبني عليه الوجه الاجتماعي من وجوه المعنى، وهو الوجه الذي تتمثل فيه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء المقال. (حسان، 1994: 337.)

فالسياق إذن "هو الرصيد الحضاري للقول وهو مادة تغذيته بوقود حياته وبقائه ولا تكون الرسالة بذات وظيفة إلا إذا أسعفها السياق بأسباب ذلك ووسائله. والمرء الذي لا يعرف الشعر النبطي مثلا لا يستطيع فهم قصيدة نبطية، حتى وإن استمع إليها ألف مرّة؛ لأنه لا يملك (سياق) هذه القصيدة، وهو الشعر النبطي كتقليد أدبي متميز. ولكلّ نصٍّ أدبي سياق يحتويه، ويشكّل له حالة انتماء وحالة إدراك"(الغذامي، 2006: 12)

ورغم حضور أثر التشكيل اللغويّ في إنشاء الخطاب إلاّ أنّ الدور المكمّل للغة هو سياق الخطاب أو مقامه؛ إذ يقتضي أيّ خطاب بيئة كلامية تهيّئ استقبال مضمونه وتفاعل المخاطِب والمتلقي معًا، هذه البيئة تتشكّل من اعتبارات لائقة للكلام تبعًا لأحوال المتلقين ومدى رضاهم عمّا يطرحه ذلك الخطاب، ولذا فإنّ اختيار المخاطِب إجراءات سياقيّة مطابقة للحال كفيلة بإنجاح ذلك الخطاب ومن ثمّ تقبله لدى الجمهور؛ وكما أسلفنا، فإنّ مقام التهنئة مباينٌ لمقام التعزية أو المواساة، ومقام الوعظ مغاير لمقام الظّرف والفكاهة، وغيرها من المقامات.

ولذا "يسعى تحليل الخطاب إلى ربط الملفوظات بسياقاتها، وفي أغلب الأحيان، يحدد تحليل الخطاب بهذه الخصيصة، غير أنه لا يدرس الملفوظات بشكل محايث، لكي يربطها بعد ذلك بالمعايير المختلفة(الخارجية) السياقية: بل على العكس، يسعى إلى الإحاطة بالخطاب بوصفه نشاطًا غير مفصول عن هذا السياق... فيُدرَج بالإضافة إلى المشاركين والمكان والزمان والغاية ونوع الخطاب والقناة واللهجة المستعملة والقواعد التي تحكم التداول على الكلام في صلب جماعة معيّنة." (مانغونو، 2008: 27-28)

هذا التفاوت بين المقامات اللسانية والسياقية يقضي بتنوّع أساليب الأداء اللساني بين تقديم أوتأخير، وقصر أو إيجاز، وحذفٍ أو ذكر، وتعريف أو تنكير، فضلاً عن المفاضلة بين الصيغ التي يتداولها منشئو الخطاب، وفرادة الأسلوب لدى كلٍّ واحد منهم؛ سعيًا لتحقيق خطاب رفيع رائق يتعدّى مرحلة الإفهام إلى التأثير الوجداني المتفاعل بين طرفي الخطاب؛ وعليه "فمن المفترض أن يستعمل المتكلّم اللغة التي يفهمها المتلقي، بالإضافة إلى شروط أخرى لا تقف عند حدود اللغة ونوعها، فلابدّ أن يمتلك المتكلم والسامع المعرفة اللغوية ودلالات الكلام بالطريقة المشتركة".(ربابعة ونزال،2015: 756)

توصيف الأداء اللغوي في الإعلام المرئيّ:

لعلّ نظرةً فاحصةً دقيقةً في ما تستظهره بعض محطّات الإعلام العربية الفضائية المرئيّة-تحديدًا- تكشف تجليات الأداء اللغويّ بمختلف مستوياته: فتظهر صورة اللغة العاميّة الهجينة في بعض ما يُعرض للمشاهِد، ونشهد صورة لعاميّة خالصة نقيّة من التأثر حينًا آخر، وتبرز معالم فصاحةٍ وسطى تتخذ مساحة لا بأس بها من الوقائع، لكننا لا نعدم رؤية تمثيل لمستوى عالٍ من الفصاحة اللغوية يكاد ينحصر في بعض نشرات الأخبار، ونزرٍ ليس بالكبير من البرامج الدينية، وبعض المحطّات التي تروّج لسلعٍ متنوّعة يرى القائمون عليها أنّ أداء العربية بمستوى فصيح كفيلٌ بإمكانية الوصول بشكلٍ متّسعٍ اتّساع فهم هذا المستوى اللغوي عند الكثير اللامتناهي؛ بما يحقّق أكبر عائدٍ اقتصاديٍّ إذا ما اقتصرت لغة هذه القناة على لهجة بعينها. هذه المشاهد المتنوعة للأداء اللغوي- رغم تفاوت قبولها لدى المتلقي- ترتبط ضرورة بمقامات سياقية تستهدف تحقيق التميّز والتأثير في المتلقي بعيدًا أو قريبًا من أيّ اعتبارات لغوية.

ويستحوذ مشهد إعلاميّ آخر من مشاهد الخطاب الديني المرئي على أنظار كثيرين فيشدّهم إليه، بما يبثّه من أفكار ومعرفة دينية تتجلّى بمستوًى عاميّ آخر يستعمل اللهجة المصريّة أيضًا؛ مثل أكثر الفضائيات المصرية سواء أكانت دينية أم عامّة، وهو رغم عظم مادّته وأهميّتها يُغرق في اللحن غير العمْد الدّال على غياب كثير من قواعد النحو- البسيطة منها على وجه الخصوص - فيُفجع من عنده علمٌ برفع المنصوب وخفض المرفوع، وغير ذلك مما يترفع عن الخطأ فيه من يمتلك أدنى معرفة بالعربية، لكنّ

هذا الحال لا يعيره ذلك الداعية(المخاطِب) مثلاً كبير اهتمام؛ ونمثّل هنا لعمرو خالد_ الذي استحوذ خطابه مساحة زمنية ومكانية جيدة في قلوب جمهور واسع واسترعى اهتمام شريحة كبيرة من المتابعين_ فهو مقبول على علاّته عند الآخرين يعجبهم على غرابة لحنه؛ لفرادة أسلوبه الشائق الذي لا تقف الألفاظ حائلاً دون التعبير عن الفكرة مهما اقتضى الأمر من وقوع في لحن هنا أو هناك. بل يتجلّى هذا الأداء التواصلي أكثر في عبارات الدّعاء التي يتخللها خطابه، فيحاول جهده استحضار نمط من السلامة اللغوية لكنه لا يفلح كثيرًا إلاّ في نزرٍ يسير من العبارات القصيرة والسّهلة، وكثيرًا ما يلجأ إلى تسكين أواخر الكلمات كي يسلم من الوقوع في اللحن، وقد يلجأ أحيانًا إلى قلب مخارج بعض الحروف؛ كأن يقلب الثّاء سينًا، والسين زايًا، والقاف همزةً، وغير ذلك من الصفات الصوتية الخاصّة بتلك اللهجة.

ولا يقتصر الحال على أمر اللهجة العاميّة المصريّة وحسب، بل نرى مشاهد لعاميّات أُخر تحتلّ مساحة لا بأس بها من الفضائيات العربية، كبعض اللهجات الخليجية التي يُتوسَّل بها لتقديم مضامين دينية سامية عظيمة، غير أنّ الصورة تبدو متأرجحة بين الفصيح الخالص حينًا والعاميّ أحايين كثيرة، هذه اللهجات ليست أفضل حالاً من مثيلاتها – كالمصرية مثلاً– إذ تبرز معالم اللحن، والصفات اللهجية المميزة لهذه اللهجة من غيرها؛ كقلب الجيم ياءً، وقلب الغين قافًا، واستدخال بعض الألفاظ الأعجميّة أحيانا – بوعي أو دون وعي – لكنها مع كلّ هذه الصفات والعلاّت أحيانًا تروق لكثيرين؛ ولعل مردّ ذلك الاستحسان عائد إلى طرائق الأداء وما يصحبه أحيانًا من تعبيرات انفعالية تستحوذ أذواق المتلقين.

وتبدو الصورة أكثر إثارة ودهشة إذا ما قُدِّم إلينا عمل خطابيّ يتّخذ من الفصحى صبغةً فُطرَ عليها صاحب ذلك العمل، واتخذها أساسًا لمادّة خطابه _ ونعني هنا الخطاب الملفوظ_ فيحسن تأدية الفكرة بمضمونها العالي، متوسِّلاً إليه بمستوًى خطابيٍّ لغويّ نقيّ، تبرز من خلاله طرائق الفصحاء وتعبيراتهم، ونمثّل هنا للشيخ محمد راتب النابلسي؛ فهو يرقى بما بمادّة خطابه بتوسّله بديع اللفظ وحسن السبك وبراعة التصوير الكلامي، ينساب فيه الكلام سجيّة دون تكلُّفٍ أو مشقّة، فلا نجده يقف عند المفعول به –مثلاً – ينتظر استدعاء حركته الإعرابية مما استدخله من نحو العربية، بل يلوذ بصورٍ من التنغيم والنبر، والإدغام، متوسِّلاً بها التعبير عما يريد. وعليه؛ يصبح بمكنة كلّ من ينشر في مساحاتٍ جغرافية مختلفة ملمٍّ بالعربية المشتركة/الفصحى، أن يتواصل بيسرٍ وسهولة مع هذا الأمر دون مشقّة أو صعوبة في الفهم.

وإذا ما قصرنا الحديث على ما نستظهره من لغة الخطاب الديني في الإعلام المرئيّ، نجد أنفسنا حائرين في محاولة تفسير تنوّع مستويات الخطاب؛ ذلك أنّ كلّ مستوًى خطابيّ يستهدف أهله إيصال الأفكار إلى الآخرين والتأثير فيهم، دون أن يكون في حسبان بعضهم أحيانًا همّ العربية النقية أو البيضاء ضرورةًأصالةٍ ووجودٍ؛وإثباتًا للهوية العربية الحاصلة على شرعيتها من رقيّ لغتها، وكشف قدرات تلكم اللغة في التأثير والإقناع في المتلقي؛ إذ ينصبّ اهتمام جلّهم نحو سلوك أسلوب يرى من خلاله أنه الأفضل والأقدر على بلوغ المراد.

ونسجّل هنا مشهدين للخطاب الديني العربي المعاصر ينطلق أحدهما من نوافذ دينية ضمن عدد من البرامج غير الدينية كجزءٍ من أجزاء الخطاب المتنوّع المرغوب فيه لدى الجمهور، مما يعدّ مادّة إعلاميّة رائجةً سائغة لدى جمهور المتلقين. وفي المقابل نشهد طائفة من القنوات الفضائية المرئية ذات الصبغة الدينية الصّرف في ما تقدّمه من برامج للمتلقي على تنوعها، تستقطب شريحة واسعة من المتابعين والمهتمين بمادة هذه القنوات.

ورغم تنوّع مادّة كلٍّ من المشهدين إلا أنّ قواسم مشتركة جامعة بينها فيما يخصّ المقام الخطابي اللغوي في ما يعرض من برامج دينية، ولعلّ توجيه البحث والدرس نحو تشخيص معالم هذا الخطاب والنظر في أسبابه ودوافعه، ومدى تأثيره على سلامة أداء اللغة وتمثيلها تمثيلا نقيًّا رائقًا، وصولا إلى إمكانية البحث عن حلول علمية عمليّة قابلة للتطبيق؛ من شأنه أن يمنح هذه الظاهرة كبير عناية من الباحثين والمتخصصين في هذا المجال.

أولاً: الخطاب الديني في الفضائيات المنوّعة (عموم القنوات العربية):

يشكّل الخطاب الديني في معظم الفضائيات المنوّعة مساحة حاضرة تستقطب شريحة واسعة من الجمهور تبعًا لفرادة هذا الخطاب أو تميّزه، ولعلّ مصدر هذه الفرادة هو قدرة منشئ الخطاب على تأديته في مقامٍ لسانيّ يراعي طبيعة المتلقي ومستوى إدراكه للفكرة المطروحة، فضلاً عن اللغة التي يؤدَّى بها ذلك الخطاب بما ينسجم وإمكانات المتلقي اللغوية؛ بغية تحقيق التواصل الإيجابي والتلاقي الفعّال.

وبرصد فاحص لمقامية مَنْ يؤدّي ذلك الخطاب بدا أنّ منشئي هذا المشهد من الخطاب متفاوتون تبعًا لمعطيات عدّة؛ كطبيعة النهج العام الذي تنتهجة تلك القناة الفضائية مثلاً، أو تنافس قناة أخرى لإبراز مشهد خطابي ديني ينماز بأسلوب شائق مستهدفًا

استقطاب جمهرة من المتلقين. وعليه جاءت مقامات الخطاب الديني فيها على أنحاء منها:

- مقامٌ يتخذ من الجديّة نهجًا وطريقة أداء؛ إذ يفرض الموقف ذلك السلوك ولا يحتمل غيره؛ لأنّ المضمون الخطابي المطروح يقضي به، وعليه يبتعد منشئ الخطاب عن الهزل أو الطرفة أثناء الأداء، وتكون عباراته وألفاظه خير معين له على ذلك، ولهذا المقام بطبيعة الحال جمهور خاصٌّ يروقه ويتوق إليه باستمرار؛ ومثال ذلك نماذج عدّة نذكر منها: عالم الجيولوجيا زغلول النجار؛ وذلك أثناء تناوله مسائل تتعلّق بطبيعة خلق الكون والموجودات وأثر القرآن الكريم في إثباتها أو تفنيدها. وغيره من الشخصيات الدينية البارزة في مجالات أخرى.

- مقام يمزج الجدّ بالهزل متوسِّلا بالطرفة أحيانًا لدفع الملل عن المتلقي أو جذب انتباهه، مما يخلق جوًّا من الإلف والقبول والشوق للمتابعة والاستغراق في تلقي ما يطرحه صاحب ذلك الخطاب؛ لذا يتوسّل منشؤ هذا الخطاب بأدوات خطابية تستحوذ على عقول المتلقين فتسحرهم، فالمقام وإن كان دينيَّ المحتوى فإنه لا ينأى عن اتخاذ أساليب بيانية عاميّة تقترب من استعمال العامة وتحاكي واقعهم، وجلُّ هذه الأساليب ينسجها منشئ الخطاب بما لديه من خبرة وملكة ومهارة في أداء خطابه وإيصاله للجمهور بأبهى حلّة. ومهما يكن من أمر هذا المقام فلعلّ من المهم الوقوف على اللغة التي يتكئ عليها منشئ ذلك الخطاب؛ إذ هي – كما يبدو في بعض النماذج الخطابية – لغة عربية المنطق نقية في المجمل يتخللها عدد من الكلمات العاميّة الكثيرة الدوران في لهجات عدّة؛ ولعلّ هذا السلوك لمنشئ الخطاب يُعزى لاعتقاد المخاطِب أثر استخدام هذه الكلمات في جذب انتباه المتلقي أو قدرتها على ملامسة عقله أو فؤاده أكثر، ومن ثمّ يتحقّق الغرض من ذلك الخطاب وتصل الرسالة بسهولة ويسر. هذا السلوك اللغوي نراه قد أضحى مدرسة عند كثيرين من قادة الأداء الخطابي الدينيّ تحديدًا ظنًّا منهم أنّ هذا الأمر لا يشكّل جُرمًا أو عيبًا ما دامت الغاية السامية قد بلغت مرادها، وأصابت مبتغاها؛ ويتمظهر هذا السلوك عند الداعية عمرو خالد المصري اللهجة لمدة زمنية لا بأس بها.

- مقام فقهي دينيّ يتخذ من العامية المبتذلة نهجًا سائدًا مسيطرًا على طبيعة خطابه، ولا مندوحة لديه من سلوك تلك الطريق التي يراها الأقرب والأجدى في بلوغ المرام، وهذا ما نلمسه أول الأمر حينما ترتسم في أذهاننا صورة ذلك الخطاب وصورة صاحبه لما يثيره من طرفة وهزل في أثناء طرحه لذلك الخطاب، بل نرى اهتمامًا واسعًا بمتابعة ذلك الخطاب لانزياحه الأسلوبي المائز؛ ومن ثمَّ سرعة تحقيق الأثر واكتساب شريحة كبيرة من جمهور المتلقين؛ وهذا حال غالبية صور الخطاب الفقهي في مختلف الفضائيات العربية؛ ولعلّ أبرز من يمثّل هذا الدور الداعية المصري مبروك عطية.

ثانيًا: الخطاب الديني في الفضائيات الدينية الصِّرف(من باب التمثيل لا الحصر؛ قناة اقرأ، والرسالة، والرحمة، والناس، والمجد، والأزهر، والندى، والفتح، وغيرها):

ربما يكون عموم المشهد الخطابي الديني في الفضائيات الدينية في ظاهره مشابهًا لصورة الخطاب الديني في الفضائيات المنوّعة(غير الدينية)، وهذا الانطباع قد يتفق أو يختلف إذا ما أنعمنا النظر في ما يطرحه ذلك الخطاب في الفضائيات الدينية الصِّرف من مضامين وأشكال ومقامات تبرز صورًا من التمايز والفرادة؛ فالمقامات الخطابية هنا تتماهى في بعض منها مع المقامات المعهودة في كثير من تمثلات الخطاب؛ من حيث اللغة والأسلوب والأدوات الخطابية الأخرى ذات الأثر في المتلقي، غير أنّ سعة المساحة التي تستوعب تنوعًا شموليًّا في مادة ذلك الخطاب استدعت ضرورة مقامات خطابية يستحوذ منشئوها على شريحة كبيرة من المتلقين المهتمين.

- مقامٌ استعطافيٌّ يتّكئ على توظيف المعاني الدينية المثيرة لعاطفة المتلقي، إذ يتوسّل منشئ الخطاب بأدوات لسانية وحركات إيمائية تسهم في تشكيل خطاب مؤثر ومقنع للمتلقي لا يتحوّل عنه إلاّ بعد اكتماله؛ ففي حركات يديه وتنويع تنغيم صوته وعلو النبر أو انخفاضه فضلاً عن اختيار ألفاظٍ تتخذ مكانها في القلب بسرعة، بل يُجهد نفسه في تشكيل مقام عالي التأثير في وجدان المتلقي ساحرٍ لفؤاده، متوسّلاً بطرح الأسئلة الشائقة ذات المعاني الراقية فتشدّ انتباهه وتحفزه على إبداء الحرص على متابعته دون ملل أو نفور، ويتمظهر هذا المقام عند الشيخ عمرو خالد والشيخ محمد حسان، وغيرهما.

- مقامٌ هادئ النغم، رقيق اللفظ، عذب الحضور، فصيح القول، تنساب جمله بلا انقطاع يشتت الذهن أو لحنٍ يصمّ الآذان، لا يتوسّل بازدواجية التنغيم علوًّا أو هبوطًا بل يتخذ نمطًا أدائيًّا هادئاً فيسحر عقول المتلقين قبل قلوبهم؛ إذ العقل والفهم في ما يقدّمه من خطاب دينيّ يكاد يسيطر على جلِّ المشهد الخطابيّ لديه؛ ولذلك تراه يسوق مادّته سوقًا ماتعًا مفيدًا دونما الحاجة إلى استراحات صوتية؛ إذ المقام الخطابي الذي يسلكه يتطلب منه تحضيرًا مسبقًا لمادّة خطابه تؤهلّه لسلوكٍ أدائيٍّ أخّاذٍ يبلغ مرتبة عليا من التميّز. فضلاً عن امتلاك آلة لغوية بيانية فصيحة نقيّة تجتهد في تزيين خطابه وتدبيجه، ومن أمثلة هذا المقام الداعية محمد راتب النابلسي.

قواسم مشتركة بين مقامية الخطاب الديني في الفضائيات الدينية وغير الدينية:

تشترك معالم التمثيل اللغوي في مقامات الخطاب الديني المعاصر في عدد من الأمور أهمها:

1. تتغيّا التأثير في المتلقي وإبلاغ الرسالة واضحة مقنعة.
2. الحرص على إبقاء المتلقي بحالة من الترقّب والحرص على المتابعة المستمرّة.
3. مراعاة المستويات الثقافية لجمهور المتلقين عبر التواصل مع أكبر عدد منهم بلغة سائغة رشيقة ذات أبعاد تأثيرية موجّهة.
4. التركيز على ألفاظٍ بعينها؛ كأسماء الاستفهام – سواء أكانت بلغة فصيحة أم بلغة عاميّة– يستهدف منها جذب المتلقي والتثبت من استمرارية متابعته لمجريات الحدث وحثّه على التفاعل معه.
5. توظيف بعض الأداءات اللغوية؛ كالتنغيم لبعض الكلمات، أو التشديد على بعض الحروف، أو صعود النبر أو هبوطه تبعًا لسياق الحدث.
6. مراعاة الزمان والمكان بوصفهما ركنًا من العناصر المقامية المستلزمة لمنشئ الخطاب الديني؛ لأثرهما البالغ في إبقاء المتلقي حاضرًا متفاعلاً مشاركًا في إنتاج ذلك الخطاب.
7. اتخاذ مقامات خطابية متفاوتة تتمايز وفقًا لأسلوب المخاطِب ومقاصده، فضلاً عن طبيعة نصّ الرسالة الخطابية المراد إيصالها للمتلقي؛ فظهر مقام الجدّ تارةً، ومقام الهزل تارة أخرى، واستحوذ مقام الوعظ طورًا، فيما اتخذ مقام الشكاية من حال الأمة وأبنائها جانبًا مائزًا، في حين كان لمقام التفقيه في الدِّين حضور كبير.
8. قد تصطبغ هذه الخطابات المتعددة بأساليب عدّة خصَّها(باختين) بمصطلحات؛ كالتهجين مثلا، ويعني" مزج لغتين اجتماعيتين داخل ملفوظ واحد، وهو أيضًا التقاء وعيين لسانيين مفصولين بحقبة زمنية، وبفارق اجتماعي، أوبهما معًا، داخل ساحة ذلك الملفوظ" (باختين،2009: 222)، ويكون ذلك بطريقة قصدية يتغيّا بها المخاطِب تطويع المتلقي لمتابعته بحرص واهتمام كبيرين.

أنماط مقامات الخطاب الديني في الإعلام المرئي ومكوّناته:

- **المقام الفقهي:**

يسيطر الخطاب الفقهي بوضوح في الإعلام عامة وتحديدًا المرئي، بل يكاد يكون طاغيًا على سائر المشهد الخطابي؛ ولعل مردّ ذلك احتياج المجتمع إلى تغذية صحيّة دسمة يواجهون بها ما يتعرضون له من إشكالات ومواقف حياتية متنوعة؛ تحتّم عليهم أن يتوسّلوا بمن يرون فيهم مصدرًا موثوقًا في تقديم الحلول والإجابات الفقهية، هذا الاحتياج يعدّ أمرًا فطريًّا سليمًا يرتدّ إليه الناس سعيًا إلى نيل رضا ربهم والقرب منه في مواقف الشدة والحاجة أو اليسر والنعمة.

في ظلّ هذه الحاجات والجوع العلمي والمعرفي ينطلق فريق من أهل العلم والدراية في ميدان خطابيّ يتحرّى التقاط أكبر كمٍّ من الجمهور والمتسائلين تحدوهم الغيرة على دين الله والحرص على تفقيه الناس به. وبلوغًا لهذا المأرب يبتكر كلّ منتجٍ لمثل هذا الخطاب طرائقه الخاصة من أجل تحقيق عنصر الإلف والقبول لدى جمهور المتلقين؛ وبما أنّ اللغة جسر رابط بين أطراف الخطاب فلابدّ من إتقان تشييده وتعبيده وتزيينه بما يحقق الغاية والمراد.

ويأتي اجتهاد منشئ الخطاب في شحذ قريحته بما يمكنه من الإجابة عن تساؤلات المتلقين وتقديم ما يقنع عقولهم من آراء وحلول؛ إن كان يرجو الحفاظ على جماهيريته أو استجلاب اهتمام آخرين. وبالعموم فإنّ إحاطة المرسِل بكمٍّ ليس باليسير من المعرفة التي تسعفه في إدارة حواره من المسلّمات والبدهيات الضرورية للنجاح والتميز؛ فالمقام يستدعي سرعة البديهة وحضور الذهن وطلاقة اللسان، دون غلظة ولا شدّة أو غضب، فضلاً عن رحابة الصدر وحسن تقبل الرأي الآخر. لذا ربما يكون المقام في مثل هذه الحالة من أصعب أنواع المقامات؛ فالزمن المتاح ربما يكون قليلا قياسًا مع حجم المتصلين أو المتلقين، وطبيعة التساؤلات المطروحة التي تتطلب إجابات شافية مشبعة لحاجاتهم. والغالب في ما يتمثّله منشئ الخطاب من أداء لغويّ يتحرّى فيه الفصاحة النقيّة قدر الإمكان، وتتنوّع صور هذا المشهد تبعًا للملكات اللغوية التي يتحلّى بها منشئ الخطاب، فضلاً عن خروج بعضهم قليلاً عن الفصحى واتخاذه من العامية المحكية بمستويات عدّة اقترابًا من طبيعة الأداء اللغوي للمتلقي– طارح السؤال– فيرتدُّ طوعًا لمحاكاة ذلك المستوى اللهجي بلا وعيٍّ أحيانًا تحقيقًا للانسجام التواصلي، بل يسجَّل لكلِّ مخاطِب صيغٌ مخصوصة بين عامية وفصيحة تلتصق بلسانه أثناء تأديته ذلك الخطاب؛ نذكر من ذلك كلمات من مثل:(كِده، شفت إزّاي؟، مش عايز،...) وغيرها من الصيغ المتنوعة تنوّع اللهجات؛ وهذا ما نلمسه في البرامج الفقهية المصرية عامّة، أو بحسب لهجة الفقيه المنشئ للخطاب.

ذلك السلوك اللغوي، وإن كان أكثر الأنماط شيوعًا، إلاّ أن حضور مشهد آخر يتخذ من الفصيحة شِرعةً ومنهاجًا في أداء

الخطاب الإعلامي يفرض وجوده لدى جمهرة من المتلقين يأنسون به ويعدّونه نافذة تستشرف تنوّع اللهجات وسعة التلقي وسهولة الفهم والوضوح.

- **المقام التفسيري للقرآن الكريم:**

حين نتابع برنامجا متخصِّصًا في تفسير آيات كتاب الله تعالى يُحرَصُ على متابعته بجاذبية عجيبة، يتّخذ من يقدّمه من العاميّة المصريّة المدبّجة بروح الفكاهة والطرافة أحيانًا، وباستعمال أساليب لغويّة وتعبيريّة – على عاميّتها – مثيرة مؤثِّرة، تشدّ بسحرها البعيد عن اللحن– الخطأ– في الكلام؛ فيقبل عليها القوم بشغف واهتمام، إذا ما علمنا أنّ بعض العاميّ خاضع بالضرورة إلى قواعد تنتظمه، لا كما يعتقد بعضهم من خلوّ العاميّة من القواعد بإطلاق. وهذا ما نراه لدى الشيخ محمد متولي الشعراوي_ رحمه الله_. بوصفه من أشهر مبدعي هذا النمط من المقام الخطابي وأبرزهم حضورًا.

فإذا ما حاولنا تفسير هذه الظاهرة التي تتخذ من العاميّة سبيلاً إلى الاتصال بالآخر، مع أنّ مادّة البرنامج المعروض تتصل بالنصّ المقدّس بالدّرجة الأولى، وأنّ من يقدّم هذا العمل لا يكون عاجزًا على تأدية العربية بمستوى فصيحٍ؛ ذلك أنّ صلته بالقرآن الكريم الذي يمثّل سنام صورة الفصحى، تجعله قادرًا على تأدية الفصحى بيسرٍ، فهو كما يبدو مما يعرض له في ثنايا تفسيره لآيات القرآن من تعريجٍ على بعض مسائل النّحو ذات العلاقة بما هو مقدَّم، إذ يفصّل في بعضها ويعلل بعضها بما استُدخل إليه من أصول نحوية مختلفة، غير أنّ سلوك هذا الضّرب من الخطاب يكون أكثر تأثيرًا واستجابة في المشاهد الذي ينشد المعرفة بأيسر الطرق، وأكثرها قربًا من واقع حياته.

وقد يتقّق المرء أحيانًا مع هذه الصورة من صور الخطاب الديني التي تبتعد عن الإغراق والابتذال في العامية، وتحاول أن تتخذ العامية السّهلة النّقية– غير المتأثرة بلهجات قد تفسدها– أنموذجًا لتقديم مادّة إعلاميّة لا تشكّل خطرًا كبيرًا على لغتنا؛ إذا ما حافظت على هذا السّمت.

في حين نجد تمظهرًا خطابيًّا في مقام التفسير القرآني يتخذ من الفصيحة سلوكًا ملازمًا غير أنّ هذه الفصيحة لا تسلم من تسرّب بعض الأصوات اللهجية إليها نظرًا لملازمتها ملفوظ المرسِل وعدم القدرة على التخلص منها؛ ومن ذلك ما نشهده بعض المحاضرات لعلي منصور كيالي أثناء تناوله قضايا وموضوعات قرآنية؛ فتبرز ملامح اللهجة السورية جلية من مثل قوله: (هزا) بدل (هذا) وقوله: (السقافات) بدل(الثقافات) وقوله: (الّزين) بدل(الذين) وغيرها من الأمثلة. غير أنّ المقام الذي يختاره هذا العالم والذي يعتمد على طرح علميّ يتخذ من العلوم الطبيعية والتجريبية طريقًا لجذب المتلقين واستدراج عقولهم لتقبّل فكرته، لا يؤثر في جعلهم مهتمين لما يقع فيه هذا العالم من مثل هذا الأداء اللغوي.

- **المقام التاريخي:**

نخصُّ الحديث هنا عن التاريخ الإسلامي بما يحفل من أخبار وأحداثٍ ومواقف تاريخية هامة يعرض لها متخصص في التاريخ أو من خلال مسلسلات تاريخية أو برامج تستهدف الاهتمام بالتاريخ ونشره، فمن ذلك فيلم الرسالة، ومسلسل عمر بن الخطّاب، وغيرها.

ولعلنا نشهد حضور اللغة الفصيحة النقية حضورًا طاغيًا ينسجم وطبيعة المادة الخطابية التي تجد من اتخاذ الفصيحة المشتركة سبيلاً لاستقطاب جمهور واسع من المتلقين دون عناء في إدراك مضامين ذلك الخطاب؛ لِما تحققه تلكم الفصيحة من إمكانات جامعة لأبنائها يلتقون حولها باهتمام وتركيز.

ويتجلّى النمط المقاميّ في مقامات أخَرَ ترتدّ بحسب طبيعة ذلك الخطاب؛ فيجتهد منشئ **الخطاب التربوي** مثلاً في تشكيل مقام لساني يتفق والمضمون الذي يقدّمه، فيتخيّر أجمل البدايات وأكثرها تشويقًا، ويسعى جاهدًا إلى نمذجة الضوابط التربوية والقيمية الإنسانية التي يطرحها، وأحيانًا أخر ربما يتحرّر من بوتقة الأسلوب اللغوي المختار لينزاح لحنًا قليلاً أو كثيرًا عن ذلك الأسلوب، ولعلّه بذلك الانزياح لا يرى حرجًا كبيرًا لاعتقاده بأنّ ذلك الانزياح ما له كبير أثر في المتلقي، أو إنه نوع من القرب من واقع ذلك المتلقي. ومهما يكن من أمر ذلك المخاطِب فلا يحقّ له أن يلوّث اللسان العربي بالشوائب تبعًا لهواه؛ فاللغة الراقية ترفع صاحبها ومقام الخطاب التربويّ أجدر أن يبثَّ قيمًا لغوية مثالية نموذجية يحذو حذوها المتلقي مهما كانت مستواه الثقافي.

ولا يغيب عن الناظر في أنماط المقامات الخطابية الدينية في الإعلام المرئي ما نشهده من اختيارات مقامات متنوعة في مثل: المقام الاجتماعي، والمقام الموجَّه للطفل والمتمثل بلسان أفلام الرسوم المتحرّكة، ولسان الأناشيد والأغاني الدينية الطفولية، فضلاً عن المقام الموجَّه للمرأة سواء أكان الخطاب صادرًا من المرأة إلى المرأة أم من المرأة إلى الرجل أم من الرجل إلى المرأة، ولعلّ هذا النمط المقامي الأخير ما نلحظ فيه تباينًا أدائيًّا في اختيار المقام المناسب؛ إذ يغلب المقام العاطفي على كثير من مشاهد ذلك

الخطاب ولعلّ مردّ ذلك السلوك طبيعة المرأة التي ربما تغريها في أحايين كثيرة القضايا التي تمسّ وجدانها وأحاسيسها، فيتطلّب ذلك من منشئ الخطاب اختيار جمل ذات شعرية وانتخاب ألفاظ رشيقة رقيقة بنغمة صوتية هادئة تمزج الفرح والحزن بنكهة رائقة جاذبة تهيمن على عقل المرأة وروحها لتحقق المراد، حتى وإن كان الخطاب الديني يتضمن معاني الرهبة فإنّ منشئ ذلك الخطاب يجتهد في إنتاج مقامٍ عاطفي يمكّنه من التأثير في المتلقي بحركاته وسكناته وربما بكائه أو تعابير وجهه المتفاعلة مع مضمون الخطاب.

المقام الطفولي:

تكشف مادّة الخطاب الطفولي– الموجّه للأطفال– تمايزًا واضحًا في اختيار البيئة الكلامية من جوانب عدّة؛ فيظهر تحرّي المقام اللغوي الفصيح بما يصاحبه من ظواهر لغوية متنوعة في بعض الفضائيات الدينية ليشكّل طابعًا أصيلاً لهذه القناة الفضائية بل ديدنًا غالبًا عليها؛ اعتقادًا من القائمين عليها أنّ سلوك هذا المقام اللغوي يغرس في أذهان الأطفال بذور اللغة الفصيحة السليمة التي يُتوسّل بها لتقديم الأفكار والمضامين المرجوّة، ولعلّ طبيعة تلكم المضامين والأفكار المتناسبة مع أعمار الفئة المستهدفة تتطلب من مختار لغة الخطاب أسلوبًا لغويًّا فريدًا يقوم على انتخاب ألفاظ ومفردات بل جمل ذات أثر في نفس ذلك المتلقي؛ ويتمثّل هذا المقام في قنوات فضائية مثل قناة المجد للأطفال، وقناة طيور الجنة، وقناة براعم، وغيرها. وفي المقابل نشهد مقامات لغوية تستهدف الأطفال تبتعد كثيرًا عن سلوك اللغة الفصيحة وتجتهد في تأدية مضمون الخطاب بلهجات عامية بعضها مبتذل لا يحقق أي تطوّر لغوي لدى المتلقي–الطفل– سوى محاكاة ما يسمعه من محيط عائلي أو غيره، ناهيك عمّا قد يشكل عليه إن لم يفهم المراد من بعض الكلام لاختلاف اللهجة أو غرابتها عليه؛ ولعلّ مردّ ذلك إعجاب منتج الخطاب بهذه اللهجة وفخره بها، أو ربما سهولة أداء ذلك الخطاب بهذه اللهجة التي لا يجد مؤدّيها عناءً في استعمالها، أو أنّ ذوق المتلقين قد يجد المتعة والسهولة في تلقي ذلك الخطاب واستقطابه؛ ويتجلّى هذا الحضور في قنوات من مثل: قناة كراميش وغيرها، ورغم ما لهذا المقام الخطابي الأخير من عيوب إلاّ أن الواقع الإعلامي المعاصر وخاصّة الديني، لم يعد يكترث بأمر استعمال الفصيحة في مادّة الخطاب الديني كثيرًا؛ نظرًا للاعتقاد بقصور الفصيحة عن المنافسة القوية في ميادين الأداءات الخطابية التي يغلب عليها العاميّة.

رأيٌ في الدوافع والمبررات:

إنّ مثل هذا الأمر يمكن رؤيته من منظورعلم اللغة الاجتماعي؛ وهو العلم الذى يدرس اللغة من حيث علاقتها بالمجتمع، أو العلم الذى يحاول الكشفعن القوانين والمعايير الاجتماعية التى توضح وتنظم سلوك اللغة وسلوك الأفراد نحو اللغة فى المجتمع.(بشر، 2005، :52).

ولعلّ تفسير هذه الظاهرة التي تتمظهر فيها العاميّة بصورة غالبة مسيطرة راجعة إلى دوافع عدّة؛ منها: قرب هذه اللهجة العاميّة من أذهان الناس وقلوبهم؛ إذا ما علمنا سعة تجليات هذه اللهجة في كثرة ما يعرض علينا من مادّة إعلامية إعلانيّة تكاد تشكّل ثلثي مساحة ما يعرض من موادّ متنوعة؛ مما جعلها أكثر قبولاً واستحسانًا نال إعجاب كثيرين. ومن جهة أخرى يرى بعضهم أن اتخاذ هذا المستوى الخطابي العاميّ سبيلاً للكلام يستهدف العاميّة لسهولة أدائها، وتقبلّها من الآخرين، حتّى وإن وقع في لحن القول فهو لم يقصد – كما يظن – الفصحى في كلامه وإن حاول؛ لذا فهو غير منوط بأن يحمل أعباء الإعراب الصحيح. أضف إلى ذلك ضعف حيلة صاحب العمل في أن يعرض مادّته المتّصلة بالدين ضرورة، في أبهى صورة لغوية فصيحةٍ دالّة على سعة العربية، وحيويّة أساليبها، وتعبيراتها القادرة قسرًا على التأثير في الآخرين، وشدّ أنظارهم. فلم تسعفه الفصحى التي يفقدها في أداء ما هو بصدده. أضف إلى ذلك أحيانًا وعي المخاطِب بالمستوى الثقافي والتعليمي لجمهور المتلقين الذين لم يبلغوا من مراتب العلم اللغوي (النحو والصرف والبلاغة والتراكيب) غير نزر قليل لا يسعفهم في تلقي أنساق لغوية عالية الأداء أو لنقل: مثالية الطرح؛ ونعني بالمثالية هنا القاعدية والمعيارية اللغوية.

خاتمة

لم ينته البحث في مقامية الخطاب الديني إلى ما وصلنا إليه، فقد وصل غيرنا إلى أمور أخرى لم يقدَّر لنا طرقها؛ ولذا فإننا نشير إلى ما خلص إليه الباحث في دراسته من أمور نجملها في الآتي:

- شهد الخطاب الديني في الإعلام المرئي– تحديدًا– تباينًا جليًّا في مادّته وشكله وطبيعته، ولعلّ هذا التباين يرتدّ إلى أسباب تتعلّق بالأدوات التي يمتلكها منشئ الخطاب، والبيئة المشكِّلة للخطاب، والغاية التي من أجلها جاء ذلك الخطاب.
- لا يمكن تجاوز أثر المقام اللساني في تشكيل خطاب تداولي مقبول لدى المتلقي؛ إذ إنه يعدُّ عاملاً مهمًّا يؤسس لخطاب ناجح سائغ.

- تنوعت أنماط المقام للخطاب الديني تبعًا لطبيعة المضمون المقدَّم وثقافة المتلقين، فضلاً عن الإمكانات اللغوية والبيانية التي يمتلكها منشئ الخطاب.
- جاء المشهد الخطابي الديني متفاوتًا من حيث طبيعة الأداء اللغوي؛ فظهرت الفصيحة النقية تارة، وتمظهرت اللغة الهجينة تارة أخرى، واستولت اللغة العامية بتنوع لهجاتها تارة أخرى.
- سلك بعض منشئي الخطاب مسالك عدّة في أثناء أدائهم لذلك الخطاب؛ فاجتهد بعضهم في توظيف العنصر الحركي، أو التنغيم الصوتيّ صعودًا وهبوطًا.

المصادر والمراجع

باختين، م.(2009)، الخطاب الروائي، ترجمة: محمد برادة، د.ط: القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع.
بشر، ك.(2005)، التفكير اللغوى بين القديم والجديد، ط1: القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
بغورة، ز.(2000)، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، ط1: مصر، المجلس الأعلى للثقافة.
بوفرة، ع.(2015)، علم اللغة الاجتماعي، مقدمة نظرية، مطبوع جامعي، جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، المغرب، الموسم الجامعي.
التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر(ت792هـ)، المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، ط3،تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013.
التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر(ت792هـ)، مختصر المعاني، دار الفكر، إيران، 1411هـ.
التهانوي، محمد علي،(1158هـ)، كشّاف اصطلاحات الفنون، د.ط، تح: لطفي عبدالبديع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972.
تودوروف، ت.(1993)، اللغة والأدب في الخطاب الأدبي، ترجمة: سعيد الغانمي،ط1: بيروت، المركز الثقافي العربي.
الجرجاني، عبدالقاهر.(471هـ)، أسرار البلاغة، ط1، تح: محمود شاكر، القاهرة: مطبعة المدني، جدّة: دار المدني، 1991م.
حسان، ت.(1994)، اللغة العربية معناها ومبناها، ط1: المغرب، دار الثقافة.
حسّان، ت.(2000)، الأصول، دراسة إبيستومولوجية للفكر اللغوي عند العرب، د.ط: القاهرة، عالم الكتب.
الدسوقي، محمد بن عرفة،(1230هـ)، حاشية الدسوقي على مختصر السعد، ط1، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، 2007.
الرويلي والبازعي(2000)، دليل الناقد الأدبي، ط2: المغرب، المركز الثقافي العربي.
الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر،(538هـ)، أساس البلاغة، ط1، تح: مزيد نعيم، شوقي المعري، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1998.
الزنكي، ن.(2006)، نظرية السياق: دراسة أصولية، ط1: بيروت، دار الكتب العلمية.
السكاكي، يوسف بن أبي بكر(ت626هـ)، مفتاح العلوم، ط1، ضبطه وعلّق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987.
الشهري، ع.(2004)، استراتيجيات الخطاب "مقاربة لغوية تداولية"، د.ط: بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة.
الغذامي، ع.(2006)، الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريحية، نظرية وتطبيق، ط2: المغرب، المركز الثقافي العربي.
مانغونو، د.(2008)، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن، ط1، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون.
ابن منظور، جمال بن مكرم (ت711هـ)، لسان العرب، د.ط، بيروت: دار صادر، د.ت.
ياكبسون، ر.(1988)، قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنون، ط1: المغرب، دار توبقال للنشر.

الدوريات:

إبرير، بشير(2008)، استثمار علوم اللغة في تحليل الخطاب الإعلامي، أعمال المؤتمر الثاني عشر، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.
ربابعة ونزال(2015)، الخطاب الأخير للرئيس بن علي بين التفويض والتقويض: دراسة في تحليل الخطاب السياسي، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، مجلد42، العدد3.
شويحط، وخليل(2016)، فضّ الشراكة المفاهيمية بين النصّ والخطاب، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، المجلد43، ملحق4.

The Contextual of Contemporary Religious Discourse in the Visual Media Pragmatics Reading

Saad Abd Allah Meqdad*

ABSTRACT

The originator of the speech must be everyone who speaks in his or her speech. Therefore, he is interested in this research in the visual media, observing the scene of linguistic representation in the variety of his linguistic performances, and reaching to his conclusion the reasons and reasons behind the production of that speech Batloum

In particular, the researcher begs the analytical descriptive, relying on the monitoring of the rhetorical media scene, in which he sheds the stylization of the socially and psychologically different semantics, which shows the effect of the context on the differentiation of speech patterns. The linguistic patterns of religious discourse, depending on the sacred discipline and culture of the recipients, are quick to express the linguistic and linguistic potential of the originator of the discourse. The advent of the religious discourse is uneven in terms of the nature of the linguistic work; I won the pure purity sometimes, and the language of the hybrid language at other times, and absorbed the colloquial language varied dialects other times.

Keywords: Context, Discourse, Visual Media, Pragmatics.

* Department of Basic Science and Humanities, Faculty of Arts and Science, Applied Science Private University, Jordan.
Received on 7/1/2018 and Accepted for Publication on 31/12/2018.